الانفتاح الدلالي في سورة الشعراء
دراسة بلاغية تحليلية

د.سعد محمد علي التميمي
الجامعة المستنصرية ـ كلية التربية
قسم اللغة العربية

المقدمة

لقد استطاع النص القراني ان يتجاوز الأرث الجمالي والبلاغي الذ كان العرب يمتلكونه ، من خلال نظمه الذي تستقيم فيه الالفاظ وتتحول الى نسق يتحكم في انتاج عدد من الدلالات التي لا تجعل للنص معنى احاديا ، ولكن هذه المعاني المتعددة قد تتحد وتتعاون في التعبير عن موضوع معين، وهذا ما سنمر عليه في هذا البحث.

وقد زخر السياق القرآني بالعديد من التحولات التي تزرع في نفس المتلقي الدهشة والإثارة والرغبة بالتفاعل مع النص القرآني،وذلك لما تحققه الألفاظ والتراكيب والصور من انفتاح دلالي يشد المتلقي نحو النص بقوة، فهو- أي الانفتاح الدلالي - تعدد المعاني في السياق الواحد وتضافرها معاً في دلالة السياق وهو بذلك يقترب إلى حد ما من مصطلح (معنى المعنى) الذي طرحه عبد القاهر الجرجاني في كتابه(دلائل الإعجاز) , ولما كانت سورة الشعراء قد تضمنت العديد من صور الانفتاح الدلالي ،وهي السورة التي تمثل الدعوة للإيمان برب العالمين، فقد حاولنا البحث عن مثيراتها السياقية وأبعادها الدلالية ، وعند قراءة السورة وجدنا أن هذا التحول يتجسد من خلال الانفتاح الدلالي الذي يقوم على تعدد دلالة اللفظة أو التركيب أو الصورة لتسهم في تحقيق وظيفتين احدهما جمالية والأخرى دلالية تتعاونان في ايصال المعنى للمتلقي و جذبه نحو النص من أجل التفاعل معه والتأثر بما يطرحه وهذه هي غاية النص القرآني المتمثلة في إقناع المتلقي جماليا ومنطقيا بما تحمله لغة القرآن من سمات اسلوبية خاصة متفردة ومتميزةجعلتها تتصف بالاعجاز .

وعلى الرغم من أن الانفتاح الدلالي يتحقق في مستويات النص الثلاثة ومن خلال معظم الأساليب إلا أن هذا البحث سوف يقف عند مظاهر الانفتاح الدلالي في بعض هذه الأساليب كالتنغيم في المستوى الصوتي والحذف والوصل والفصل والتعريف والتنكير في المستوى التركيبي ،والمعجم والمجاز في المستوى الدلالي،وتأتي أهمية هذا الموضوع كونه يبتعد بعض الشيء عن الدراسات التي شاعت في الفترة الاخيرة والتي ا تخذت من الاسلوبية منهجا لها فضلا عن ان هذا البحث يقوم على التحليل البلاغي المفصل المستنبط من جهد عبد القاهر الجرجاني في هذا الباب ،ويعد ايضا خطوة في مجال تحليل النص القرآني .

الانفتاح الدلالي في المستوى الصوتي

التنغيم

لما كانت اللغة في الاصل منطوقة اي ذات طبيعة شفاهية يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[١]، فان التنغيم يعد من أهم سمات اللغة لما يتضمنه من وظائف أدائية ودلالية ، والتنغيم؛ هو ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام[٢]، فالكلام لا يجري على طبيعة صوتية واحدة بل يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر مما يرتفع عند غيره وهذا ما يعرف باسم التنغيم[٣]. ويحدد بعض الباحثين ا الوظيفة الأصواتية للتنغيم بأنها النسق الأصواتي الذي يستنبط التنغيم منه[٤] ويتحقق عادة بمتابعة صوت المتكلم في التغيرات الطارئة عليه أصواتياً بما يلائم توقعات النفس الإنسانية للتعبير عن الحالات الشعورية واللاشعورية[٥] ويؤدي التنغيم دوراً

---

[١] ينظر : الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، حققه محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٩٥٦ م.ج١ص٣٣

[٢] **مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، الدار البيضاء، دار الثقافة ١٩٧٤ م.ص ١٦٤.**

[3] ينظر: البيان في روائع القرآن، تمام حسان، القاهرة، عالم الكتب ١٩٩٣ م.ص ٢٦٣. **وينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦١ م. ص ١٧٦.**

[4] ينظر: **مناهج البحث في اللغة ص ١٦٤ وما بعدها**

[٥] ينظر: التطور النحوي ، براجشتراسر ، مطبعة السماح ،القاهرة، ١٩٢٩ ،ص٤٦

في تغيير الدلالة تبعاً لتغيير نغمة الكلام فهو "مظهر من مظاهر الدلالة الصوتية "[٦] وله نغمات منها

١) النغمة الهابطة والتي تبرز في نهايات الجمل التقريرية والطلبية وقد سميت بالهابطة لهبوط نهايتها .
٢) النغمة الصاعدة، وتبرز في الجمل الاستفهامية التي تستوجب الإجابة بلا أو نعم والجمل المعلقة كجملة الشرط[٧]

وهذا ما نجده في قوله تعالى(**قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ () قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**)[٨] إذ تقرأ هذه الآية بتنغيمين :الأول تنغيم الاستفهام ((قالوا جزاؤه ؟)) والثاني تنغيم الأخبار والتقرير ((**جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ**)) وبذلك يكون التنغيم قد أسهم في توجيه الدلالة وتحديد المعنى[٩]

وقد كان للتنغيم حضورا واضحا في سورة الشعراء أسهم في الغالب في تحقيق انفتاح دلالي على مستوى الكلمة والجملة والتركيب مما ساعد في توجيه الدلالة في أكثر من موضع، كما قوله تعالى ((**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ**))[١٠] فقد اختلف المفسرون في توجيه هذه الآية فمنهم من قال: إن ذلك إقراراً من موسى – عليه السلام - بنعمة فرعون عليه، ومنهم من قال: إن ذلك القول من موسى إنكاراً للنعمة التي يزعمها فرعون بتقدير همزة الاستفهام للإنكار، وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء، أن عبدت عطف بيان لها[١١]

وعند تأمل الآية نجد أن كلام موسى لفرعون في هذه الآية يوجهه التنغيم ،فتارة بنغمة الاستفهام الإنكاري في قوله ((تلك نعمة تمنها علّي ؟!)) وتارة بنغمة التعجب في قوله ((أن عبَّدت بني إسرائيل !)) ومما يؤكد ذلك التعبير بالمصدر المؤول بدلا من المصدر الصريح لما في الأول من معان تدل على الحدث مثل الزمن والتكرار الذي يعكسه التضعيف في الفعل (عبَّدت)والذي يدل على المبالغة ،فضلا عن سياق الآية إذ وردت في سياق الرد على فرعون لسؤاله التقريري بالنعم التي أنعم بها على موسى - عليه السلام - كما يظنها، فأراد موسى أن ينكر هذا الزعم فقابل سؤاله بسؤال آخر تنفتح الدلالة فيه عن طريق التنغيم مراعاة لشعور فرعون وامتثالاً لقوله تعالى ((فقولا له قولاً ليناً))[١٢]

يضاف إلى ذلك قراءة الضحاك[١٣] (وتلك نعمة مالك تمنها عليَّ)، اذ عبَّر عن النعم التي ذكرها فرعون في سؤاله بـ (تلك) التي تدل على التحقير والغموض ثم تفسيرها بعد ذلك بالتعبيد، حتى يكون التعبيد أكثر تقريراً في الآذان، لأن المعنى إذا أبهم، ثم فسر بعد ذلك كان أكثر رسوخاً في الأذهان ،ويفي التنغيم في مثل هذه الحالات بالغرض دون الحاجة الى التقدير.

من وظائف التنغيم في سورة الشعراء انفتاح الدلالة، وهي سمة أسلوبية كان لها حضورها المتميز في القرآن الكريم إذ أن انفتاح الدلالة في غير النص القرآني " قد يكون ذا صبغة سلبية إذ إن المتكلم قد يأتي بها للإبهام دون الإحكام فلا يقف السامع على مراده إلاَّ بالتوَّهم دون التحكم"[١٤] إلا أنه في النص القرآني عاملٌ من عوامل إثراء الدلالة، وهذا ما نجده في قوله تعالى((**قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ () إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ**))[١٥]

---

[٦] ينظر: دلالة الألفاظ د- إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٨٠م ص٤٧

[٧] علم الأصوات د- كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر ،القاهرة ٢٠٠٠ م ص٥٣٧

[٨] سورة يوسف:الآية ٧٤-٧٥

[٩] ينظر: التنوعات اللغوية / ١٣٠ – ١٣٨ / د- عبد الخالق عبد الجليل / مط دار صنعاء ط١ / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

[١٠] سورة الشعراء الآية:٢٢

[١١] ينظر: روح المعاني ، أبو الفضل الآلوسي، تح محمد أحمد ومحمد عبد السلام، دار احياء التراث ،ط١ ١٩٩٢ ،١٩/٩٤

[١٢] سورة طه: الآية:٤٤

[١٣] ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان

[١٤] انفتاح الدلالة في النص القرآني د. مهدي عرار ،مجلة إسلامية المعرفة إصدار المعهد العالي للفكر الإسلامي العدد (٢٧) شتاء ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص٤٣

[١٥] سورة الشعراء الآية:١١٢-١١٣

فالآية السابقة يمكن أن تقرأ بتنغيمين مختلفين؛ الأول تنغيم الاستفهام الإنكاري بغرض نفي علمه بعملهم، وفي ذلك إشارة إلى أنه - عليه السلام - فهم من قولهم:- (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) أنهم يقصدون بالأرذلين الذين لا نصيب لهم من الدنيا، أو الذين (أتضعت) أنسابهم أو كانوا من أهل الصنائع الدنيئة فتجاهل - عليه الصلاة والسلام - عن مرادهم وحمله على أنهم يقصدون من لا إخلاص له بالعمل ولم يؤمن عن بصيرة على غرار أسلوب القرآن الحكيم، وغرضه من ذلك الترغيب فيما يدعو إليه ونصحهم بأسلوب لا يجرح مشاعرهم.

والثاني تنغيم الإخبار، وفي ذلك إشارة إلى أنه فهم من قولهم (الأرذلون) الذين لم يؤمنوا عن يقين ورَوِّية، فأراد إخبارهم أنه ليس موكلاً بالتفتيش عن سرائرهم عن طريق النفي، ومن ذلك يتبين أنهم أرادوا من خلال إطلاقهم لفظ الأرذلين المعنيين ً ولذلك اختار النص القرآني (ما) دون غيرها من الأدوات.

ونجد مثل هذا الانفتاح في قوله تعالى((**ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ () مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**))[16] إذ إن الآية الثانية في هذا النص يمكن أن تقرأ بتنغيمين متقابلين الأول بنغمة مرتفعة، وهي نغمة الاستفهام هكذا (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ؟). والمعنى أي شي أو أي غناء أغنى عنهم [17] تمتعهم.

والثانية بنغمة هابطة وهي نغمة الإخبار بالنفي، ويكون المعنى " لم يغن عنهم ذلك في دفع العذاب أو تخفيفه والأَوَّل أولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار "[18] وحين كانا معنيين جميعاً اختار (ما) من المحور الاستبدالي دون غيرها لأنها تحقق ذلك هذا فضلاً عن أن (ما) تشكل انسجاما صوتياً عن طريق تكرارها في الآيتين حيث تكررت ثلاث مرات. وتشكل تكثيفاً وعمقاً في المعنى عن طريقين؛ الأولى الإبهام في (ما كانوا يوعدون) فإنها عن طريق هذا الإبهام تذهب بالفكر كل مذهب في تصوَّر الموعود، وهذا أبلغ وأوفى في مقام التهديد والوعيد، والذي لن يكون لو أنه استبدلها بــ (الذي) من حيث أنها تدل على أمر معروف للمخاطب

الثانية الإبهام و الانفتاح في المستوى الدلالي في قوله (ما كانوا يمتعون) إذ إنها يمكن أن تكون مصدرية فتؤول هي وما بعدها بمصدر صريح، ويمكن أن تكون موصلة، فتوحي بالشمول عن طريق الإبهام الذي اكتنفها

ولذلك اختار صيغة الفعل (يوعدون) (يمتعون) ليكون خبراً لكان، إشارة إلى استمراره وتكراره كما عبَّر بالفعل الماضي منفياً بـــ (ما) فقال (ما أغنى) إشارة إلى تحقق النفي وتأكده.

وقد كان للتنغيم أثره في انفتاح الدلالة على المستوى الصوتي فثمة أمر آخر كان له دوره في انفتاح الدلالة على هذا المستوى يتمثل في تعدد القراءات للفظة مما يكشف عن وجه من وجوه الإعجاز القرآني في المستوى الصوتي فضلاً عن أن تعد القراءات تكشف عجز العرب عن الإتيان بمثله فكونه ينزل بقراءات متعددة مجارٍ لتعدد لغات القبائل العربية ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بآية من مثله فضلاً عن سورة دليلً على إعجازه، وهناك أمرٌ اقتضاه تعدد القراءات هو تيسير القراءة[19] وهذا ما نلاحظه في سورة الشعراء ومن ذلك قوله تعالى ((**إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**))[20]

فقد أختلف القراء في ضم الخاء واللام، وفتح الخاء وتسكين اللام في كلمة ((خَُلُْق)) الواردة في الآية إذ قرأها نافع وابن عامر وعاصم وحمزة : ((خُلُق)) بضم الخاء واللام، وقرأها ابن كثير، وأبو عمرو والكسائي : ((خَلْق)) بفتح الخاء وتسكين اللام[21] وهذا الاختلاف

---

[16] سورة الشعراء الآية:٢٠٦-٢٠٧

[17] ينظر: روح المعاني الآلوسي١٧٥/١٩

[18] ينظر: روح المعاني الآلوسي١٧٥/١٩

[19] ينظر تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي دار الكتاب العربي ، بيروت، ط٢ ١٩٧٤ ،٤٩/٢

[20] سورة الشعراء،الآية :١٣٧

[21] كتاب السبعة لابن مجاهد تح شوقي ضيف دار المعارف، القاهرة، ط ٢،ص٤٧٢

في القراءة نتج عنه اختلاف في مدلول اللفظ إذ إن المعنى على القراءة الأولى : (عادة وشيمة وطبع)، وعلى القراءة الثانية (اختلاق وكذب وإيجاد) ويؤيد معنى الاختلاق رواية علقمة عن عبد الله إذ أنه قرأ، (إلا اختلاق الأولين)[٢٢]

و في هذه الآية انفتاح دلالي آخر في المستوى التركيبي على قراءة الضم إذ يحتمل أن يكون المشار إليه بـ (هذا) دعوة هود - عليه السلام - وعلى ذلك يكون المعنى ما هذا الذي جئتنا به إلاَّ عادة الأولين يلفقون مثله ويدعون إليه وفيه إشارة إلى تكذيبه - عليه السلام -. كما يحتمل أن يكون المشار إليه ما عليه هم من العبادة فيكون المعنى ما هذا الذي نحن عليه من العبادة إلا عادة الأولين أما على القراءة الثانية فيكون على الاحتمال الأول ما هذا إلا اختلاق الأولين وكذبهم، وعلى الاحتمال الثاني ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ومرادهم إنكار البعث والحساب المفهوم من تهديدهم بالعذاب[٢٣] والغرض من هذا الانفتاح الناتج من تعدد القراءات الإشارة إلى كمية المعاناة التي لقيها هود - عليه السلام - وهو يدعو قومه حتى يتأسى بها سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فيهون عليه تكذيب قومه.

ومما يدخل في باب الانفتاح دلالي قوله تعالى **((وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ))**[٢٤] فقد اختلفوا في إسقاط الألف وإثباتها في كلمة (فرهين) إذ قرأ " ابن كثير وأبو عمر ونافع (فرِهين) بغير ألف وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة و الكسائي (فارهين) بألف"[٢٥] وهذا الاختلاف نشأ عنه اختلاف في الدلالة على المستوى الصرفي إذ إن القراءة الأولى تدل على أن صفة الفره ثابتة ودائمة لهم، لأن اللفظ معها صفة مشبَّهة والصفة المشبَّهة تدل على الثبات والدوام. أما القراءة الثانية فتدل على أن صفة الفرَه متجددة وليست دائمة، لأنها على صيغة اسم الفاعل وهي صيغة أخذت حكم الفعل المضارع في التجدد والحدوث فضلاً عن أن (فارهين) على صيغة اسم الفاعل تدل على الحذق والمهارة، و (فرِهين) على صيغة الصفة المشبهة تدل على الأشر والبطر[٢٦]، و القرآن الكريم أراد أن يجمع الصفتين لهم بلفظ واحد فكان أن قرئت هذه اللفظة بهاتين القراءتين، لأن ذلك يتناسب مع موقف النصح والتذكير بالنعم فقد أشار إلى تذكيرهم بالنعم عن طريق الإتيان باسم الفاعل كما نكرَّ بيوتاً عن طريق قراءة (فرِهين) الصفة المشبهة ونجده كذلك أيضاً في قوله تعالى **((إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ () وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ () وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ () فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ))**[٢٧].

إذ ان لفظة (حذرون) في الآية قرأها ابن ذكوان والكوفيون من غير السبعة (حاذرون) بصيغة اسم الفاعل و قرأها الباقون (حذرون) بصيغة ((فعِلْ)) الصفة المشبهة[٢٨] ولا شك في أن المعنى على القراءتين يختلف في الكمية والزمن لهذا الصفة، إذ إن قراءة (حاذر) تدل على أن الحذر ليس ثابتاً لفرعون وإنما هو صفة طارئة لأن صيغة اسم الفاعل تدل على الحدوث وهذه القراءة تصوَّر لنا نفسية فرعون المرعوبة والخائفة من أمر موسى فكون فرعون ليس من عادته الحذر والتيقظ إلاَّ في هذا الأمر فهذا دليل على صدق موسى فيما يدعو إليه، وكذب فرعون فيما أوهم به قومه حتى أنه خاف من انقلاب قومه عليه، والذي يدل على ذلك تأكيد الخبر بان، وتكرار هذا التأكيد في الجمل الثلاث (إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائضون وإنا لجميع حذرون).

أمَّا قراءة (حذرون) فإنها تدل على أن الحذر ثابت ودائم لفرعون، لأن الصفة المشبهة تدل على الثبوت والدوام، وهذه القراءة تصوَّر لنا شيطنة فرعون من ناحية، وبلادة القوم

---

[٢٢] روح المعاني الآلوسي ج١٩ص١٥٠

[٢٣] ينظر المرجع السابق ج١٩ص١٥٠

[٢٤] سورة الشعراء،الآية:١٤٩

[٢٥] كتاب السبعة لأبن مجاهد تح شوقي ضيف ص٤٧٢

[٢٦] ينظر القاموس المحيط ، الفيروز ابادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،مادة ((فره))

[٢٧] سورة الشعراء،الآية:٥٤-٥٦

[٢٨] ينظر فيض الرحيم في قراءات القرآن الكريم، القراءات السبع ، بروايات عدة ، إعداد سعيد اللحام ، عالم الكتب ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ص ٣٧٠

وسذاجتهم من ناحية أخرى، فإنه إنما لجأ لهذه الصيغة ليوهم القوم أنه إنما فعل ذلك ليس خوفاً من موسى ومن معه،و يؤيد ذلك قراءة من قرأ هذا اللفظ (حادرون) بالدال بدلاً من الذال لأنها قد قرئت بـ ثلاث قراءات (حذرون) و (حاذرون) و (حادرون) بالدال غير المعجمة[٢٩] ، فإنَّ قراءة ((حادر)) تدل على أنه ذهب إلى نفي الحذر لأن الحادر هو المشمِّر، فأراد إنا قوم أشداء مدججون بالسلاح[٣٠]، وبعد ألا ترى أن القراءات الثلاث لهذه اللفظة قد صورت خوف فرعون ومغالطته وكذبه ومعاندته للحق وبلادة القوم وسخفهم كل ذلك بلفظة واحدة نقلت لنا هذه المعاني كلها عن طريق الصوت، وقد عزَّز ذلك النغم القوي و المتسارع الناتج من التقطيع للجمل ومن التوكيد الذي ذكرناه، تكرار ((اللام)) في (شرذمة - لنا - لغائضون - لجميع) والذي تناسب مع موقف الارتباك الدال على خوف فرعون وفزعه من أمر موسى، ومن هنا يحسن الوقف عند رؤوس الآيات تحقيقاً لهذا الغرض.

الانفتاح الدلالي في المستوى التركيبي

الحذف

تحدث البلاغيون القدامى عن الحذف بأنواعه وأقسامه، لكنهم لم يقفوا طويلا عند وظيفته البلاغية في نقل المعنى واقتصرت جهودهم في هذا المجال على بعض الإشارات المقتضبة والسريعة باستثناء عبد القاهر الجرجاني الذي كان له الفضل الكبير في إدخال البلاغة إلى دائرة التذوق الجمالي إذ يصفه بأنه " باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون إذا لم تبن "[٣١].

و الحذف يعد سمة أسلوبية بارزة لها أثرها في النص القرآني بشكل عام وسورة الشعراء بخاصة ،ومن ذلك ما ورد في سورة الشعراء في قوله تعالى **((فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون))**[٣٢]

فقد حذف هنا مفعول ((كذبوا)) وكان لهذا الحذف ميزة معنوية ،وأخرى صوتية حيث دلَّ الحذف على المبالغة في التكذيب عن طريق التعميم الناتج من الحذف هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه أراد اكتفاء الفعل بفاعله دون أن يتعداه إلى مفعول فالمراد نسبتهم إلى التكذيب دون الشيء المكذَّب، وفي ذلك ما فيه من التهديد لهم مشعراً بجسامته من عدة نواح ، منها عطف (سيأتيهم) بالفاء الدالة على الترتيب، والتعقيب والتي شعرت بقرب الإتيان وسببه، ثم وصل الفعل بالسين الدالة على تأكيد وقوع الفعل، واختيار (الأنباء) بدلاً عن (الإخبار)، وقوله ((ما)) دون ((الذي)) لما فيها من تعظيم الأمر عن طريق الإبهام اللاحق لها.

أما الناحية الصوتية التي اقتضاها الحذف فهي الخفة والانسجام مع آيات السورة ولا شك أن الناحية الصوتية والانسجام النغمي بين الآيات من الأشياء التي يلتزمها الذكر الحكيم لما لها من أثر عظيم في نقل المعنى والتأثير على المتلقي فأنت تحس مع هذا الحذف بموسيقى صاخبة وعنيفة وحركة سريعة وإيقاع متسارع ينسجم مع الغرض من الآية المتمثل بالتهديد وذلك لا يكون لو أنه ذكر المفعول وإن شئت أن تتحقق فقل (فقد كذبوا بالذكر فسيأتيهم) فلا شك في أنك ستشعر بالثقل الناتج من توالي الباء في كذبوا وحرف الجر في بالذكر وستعدم تلك الحركة السريعة والإيقاع المتسارع.

وقد راعى الحذف هنا الغرض العام من السورة إذ أن الغرض منها الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق تعجيل العقوبة لمن كانوا السبب وراء حزنه الذي كاد أن يقتله فالمهم في

---

[٢٩] ينظر التفسير الكبير الفخر الرازي ، قدَّم له ، هاني الحاج ، تح ،عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، سيدنا الحسين ١٢٨/٢٤

[٣٠] المصدر السابق ١٢٨/٢٤

[٣١] دلائل الإعجاز الجرجاني، تح ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ،١٩٨٢،ص ١١٢

[٣٢] الآية:٦

هذا السياق هو التكذيب وعاقبته وليس الشيء المكذب والدليل على ذلك أن هذه الآية وردت بالمعنى نفسه في سياق آخر وذكر فيها المفعول قال تعالى (**فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ**)[٣٣]

من الوظائف الأخرى للحذف في النص القرآني - فضلا عّما ذكر – الانفتاح في الدلالة عن طريق التقدير للمحذوف وهي سمة تميز بها القرآن الكريم عن غيره من النصوص من حيث إن كل تأويل للمحذوف يصدق مع الدلالة ويوضحها ويدعمها فالنص القرآني قد يحذف كلمة من السياق فيترك المتلقي يذهب في تقدير المحذوف أو تأويل المذكور كل مذهب ولا شك في أن لذلك أثره في إثراء الدلالة عن طريق التكثيف في الإيجاز وقد كان لهذه السمة حضورها الواضح في سورة الشعراء كما هو الحال في قوله تعالى في سورة الشعراء (**وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ () ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ**)[٣٤]

فالحذف وقع في الآية الثانية فذهب النحاة في إعراب (ذكرى) مذاهب مختلفة فمنهم من قال إنها (حال) من ضمير (منذرون) بتقدير مضاف محذوف والتقدير ((ذوي)) ذكرى أو بتقدير (مذكرين) أو يبقى دون تقدير (هذه ذكرى) أو بتقدير (مذكرين) أو يبقى دون تقدير للمبالغة، أو أنها مفعول له أو أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه ذكرى) والجملة اعتراضية[٣٥]

فعلى اعتبار (ذكرى) حال من ضمير (منذرون) بالاعتبارات الثلاثة يكون المعنى البالغة في التذكير من قبل المنذرين قبل الإهلاك أي أن إهلاكنا للقرية لا يكون إلا بعد الإنذار المبالغ في الذكرى لتلك القرية ولذلك قال وما كنا ظالمين.

أما على اعتبار (ذكرى) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه ذكرى) فيكون الغرض التهديد ،ولذلك قدَّم الجملة وجعلها معترضة بين المعطوف و المعطوف عليه اهتماماً بشأنها من ناحية، ومراعاة للفاصلة من ناحية أخرى ،إذ لو أراد الترتيب لقال وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون وما كنا ظالمين هذه ذكرى والذي يؤيد هذا الغرض إعراب الزمخشري الذي اعتمده حين قال (هو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له... ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم... وهذا الوجه عليه المعوَّل)[٣٦]

والذي يبدو للباحث أن النص القرآني من خلال هذا النظم قد أراد التشديد ولفت نظر القوم إلى أهمية الذكرى والإنذار تحقيقاً لعدالة الخالق جلَّ وعلا مع خلقه ولذلك جعل الإنذار آخر أية وأتى بالذكرى في بداية الآية الثانية ليقع التركيز عليها من قبل المتلقي عن طريق الوقف والابتداء، ثم عن طريق الانزياح عن القاعدة النحوية إذ أن المتلقي يعرف أن الحال تكون مشتقة، وذكرى جامدة فيشكل ذلك عنده فجوة تجعله يبحث عن ما يكسر تلك الفجوة بين اشتراط القاعدة ومتطلبات السياق فيذهب إلى التأويلات المختلفة والمتكاملة في إبراز الدلالة المبتغاة

وكما كان لهذا الحذف دلالته من خلال زيادة (من) في الآية الأولى في قوله (وما أهلكنا من قرية) فمن هنا وإن كان حذفها من السياق لا يخلُّ بالمعنى العام من الآية ولكنه يخل به من حيث نقصان الدلالة فالقرآن الكريم أتى بـ((من)) لغرض التشديد والتأكيد في نفي الإهلاك كما أفاد العموم الناشئ منها ومن تنكير قرية ولو حذفت من السياق لذهب هذا التأكيد وذلك العموم فانظر إلى هذه الدقة في النظم في النص القرآني إنه لا يختار الكلمة إلا إذا كانت تؤدي المعنى بدقة وأمانة ولا يحذف من السياق إلا إذا كان هذا الحذف يحقق غاية هو يريدها ولا يزيد الألفاظ في السياق إلاَّ إذا كان لهذه الزيادة شأن وغرض بحيث لو حذفت لاختل النظم،

---

[٣٣] سورة الأنعام ،الآية ٥

[٣٤] سورة الشعراء ،الآية :٢٠٨-٢٠٩

[٣٥] الكشاف،الزمخشري ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢ ٢٠٠١ ، ٣٤٣/٣ ،وينظر: روح المعاني الآلوسي ١٧٧/١٩

[٣٦] الكشاف،الزمخشري ٣٤٣/٣ ،وينظر: روح المعاني الآلوسي ١٧٧/١٩

ومما يشير إلى هذه الدقة فضلا عما ذكر ،اختيار (أهلكنا)بالماضي بدلا من نهلك واختيار الجملة الاسمية وتقديم الخبر على المبتدأ فيها حيث قال (إلا لها منذرون) دون أنذرناها أو ليس هذا الاختيار أكمل في تحقيق التهديد للمكذبين من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق التعبير بصيغة الماضي التي تدل على تحقق الفعل وانقضائه و الإشارة إلى استمرار هذا الفعل وتأكيده عن طريق الإتيان بالمبتدأ (منذرون) مشتقاً ليدل على استمرار الإنذار المسبب للهلاك إذ لم يكن هناك استجابة

التعريف والتنكير

من المعروف أن للتعريف والتنكير وظائف دلالية عديدة منها الانفتاح الدلالي الذي يسهم في تكثيف الدلالة والتأثير في المتلقي ،وهذا ما نجده في قوله تعالى(**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**)[٣٧]

ورد في الآية ثلاثة أنواع من التعريف وهي التعريف باسم الإشارة(تلك) والتعريف بالإضافة (آيات الكتاب) التعريف ب(أل) (الكتاب المبين) ولكل نوع منها غرضه وحكمته البلاغية فالتعريف باسم الإشارة يدل على أن المشار إليه مشاهد وحاضر بحيث لا ينكره أحد والآية وردت في معرض الرد على أولئك المعاندين المكذبين من كفار قريش وطلبهم معجزة غير القرآن[٣٨] فكان التعبير باسم الإشارة دون غيره ملائماً في تكذيب زعمهم فكأنه يخبر بأن هذه الآيات واضحة مشاهدة لديهم بحيث لا تخفى على أحد منهم.

ثم أن النظم القرآني عدل عمَّا يقتضيه الظاهر فكأن الظاهر أن يقول (هذه) ولكنه عبَّر ب(تلك)الدالة على البعد منبهاً بذلك على عظمة المشار إليه ، ثم لما في هذه اللفظة من جزالة وقوة ناتجة عن صفات التاء والكاف فهما حرفان شديدان بخلاف الهاء والذال فهما رخوان والمقام يناسب العظمة والقوة لأنه حديث عن القرآن وعظم آياته، ومن هنا اختار الآيات نكرة ثم جعل تعريفها بالإضافة إلى الكتاب لما في هذه إضافة من الاستحقاق والقصر فكأن المعنى مع الإضافة أن هذه الآيات للكتاب خاصة وليس لغيره عن طريق الإثبات والنفي المفهوم من القصر الحاصل من الإضافة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإضافة قد أشعرت بعظمة تلك الآيات بحيث جعلت دلائل الكتاب الكاملة وإن شئت إن تتبين ذلك فقل تلك آيات للكتاب دون إضافة أوليس تحس مع هذا التعبير البعضية ولذلك كانت (آيات) بدون تنوين أقوى وأجزل في جرسها من آيات منونة.

وأخيراً انظر إلى تعريف كتاب، ومبين فقد عرفت الكلمتان بالألف واللام لما في هذا التعريف من دلالة على الكمال والاختصاص بالوصف فكان المعنى الكامل الذي لا يعتريه نقص والمختص بهذه الصفة دون غيره من الكتاب فكأنه أراد أن يقول فكر في نفسك في صفة الكمال ومتى تتحقق فإذا وصلت إلى قرار فإنها هي بعينها صفة الكتاب وصفة الإبانة.

ثم أنه اختار من المحور الاستبدالي (المبين) دون (الواضح) وذلك لما في الصفة الأولى من مزايا لم تتوفر في الثانية ذلك لما في الصيغة الأولى من الانفتاح الدلالي على المستوى الصوتي إذ أنها إما أن تكون مشتقه من الفعل اللازم (بان) فتكون صفة مشبهة تدل على ثبوت الصفة لموصوفها وإما أن تكون مشتقه من الفعل المتعدي (أبان) فتكون بذلك اسم فاعل واسم الفاعل يدل على التجدد والحدوث والقرآن أراد المعنيين معاً فأتى بهذه اللفظة لتكون صفة الإبانة ثابتة متجددة للقرآن

ولهذا الاختيار أثره الصوتي إذ أنه يحقق التشاكل عن طريق اتحاد الحرف الأخير في فاصلة الآية مع الفواصل الباقية للسورة ولا شك في أن هذا التشاكل يضفي على النص إيقاعاً تطرب النفس لسماعة ويزيد من بلاغة الصورة .

---

[٣٧] سورة الشعراء،الآية: ٢

[٣٨] ينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصايوني دار القرآن الكريم بيروت ط١ / ١٤٠٠هـ - ١٩٨١م ، ٥٤/١٠

ومن جهة أخرى فإننا نلمح في هذا الآية خصائص أسلوبية على المستوى الصوتي مثل تكرار صوتي (التاء) ، و (الكاف) وهما حرفان مهموسان.... يبعثان على التأمل والتفكر بما يلحقها من الهمس والإكثار من هذه الأصوات في هذه الآية يبعث على التدبر فكأن ذلك جاء ليعضد التعبير بتلك التي تشير إلى شيء مشاهد.

كما أن تكرار التعريف في الآية قد خلق موسيقى قوية تناسب وتساعد في رسم صورة العظمة والرفعة وقد ساعد على ذلك إتيان المسند إليه اسماً والاسم يدل على الثبوت والدوام وذلك يتناسب مع الحديث عن القرآن وكأنه أرد أن يقول إن هذه الآيات ثابتة دائمة للقرآن

وبعد ألا ترى كيف رسم هذا النظم صورة العظمة والقوة والوضوح لهذا الكتاب عن طريق النظم المتبع لألفاظه وهي صورة بصرية محسوسة أوحت بمدى عناد القوم عن طريق التقابل بين وضوح الآيات وكمال الكتاب من ناحية وإعراض وتكذيب كفار قريش له من ناحية أخرى

ويتضح أثر التعريف والتنكير في نقل الدلالة في مواضع أخرى من سورة الشعراء كما في قوله تعالى(**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)** [٣٩]

نكَّرَ النظم القرآني كلمةَ ((ثعبان)) لأنَه أراد من خلال هذا التنكير الإشارة إلى ضخامة وعظمة الثعبان المنقلب عن العصا فأتى باللفظ منكَّر لأن التعريف يذهب بهذا المعنى بدليل أنه لو كان النظم أتى بالتعريف فقال فإذا هي الثعبان المبين لأوحت اللام المتصلة باللفظ على أن هناك ثعبان معهود ومعروف للمخاطب هو المعبَّر عنه في الآية ولا شك في أن ذلك يذهب بتلك الضخامة والعظمة من جهة ويفقد عنصر المفاجأة على عكس التنكير فإنه أوحى بأن هذا الثعبان لضخامته وكبره غير معهود ولم يسبق لمثله نظير ولا تعرفه الحاضرون وهذا هو المقصود من الآية بدليل إشارة المفسرين إلى أن فرعون عندما شاهد الثعبان ارتعدت فرائصه لدرجة أنه طلب من موسى أن يأخذ مقابل أن يؤمن بما جاء به ولكنه عاد ونكث

إن تعريف العصا بإضافتها إلى ضمير موسى يبين هذا الفرق الذي قلناه كما يكشف عن عظمة المعجزة التي أتى بها موسى لفرعون عن طريق هذا التقابل بين العصا الحقيرة والمألوفة للناس وبين تحّلها إلى ثعبان عظيم لم يعهده القوم ولم يشاهدوا مثيلاً له وإن شئت قل بين التعريف والتنكير

إن التعبير باذا الفجائية قد دلَّ على التحّول السريع للعصا في غمضة عين، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا التحوّل لم يكن مألوفاً وإنما هو خارق للعادة فهو معجزة الرب لموسى

وقد يقال إذا كان التنكير يفيد التعظيم للثعبان كما قلت فلم وصفة الله تعالى بأنه (مبين) ولم يكتف بالتنكير نقول إن هذا الوصف أتى به النظم القرآني احترازاً من أن يظن أن هذا التحوَّل كان بفعل السحر خاصة وأنه حصل سريعاً، ولهذا اختار (مبين) وعدل عن (واضح) على المحور الاستبدالي لما في صيغة (مبين) من الانفتاح الدلالي على المستوى الصرفي وقد وضَّحنا ذلك سابقاً

كان لظاهرة الانفتاح في الدلالة حضورٌ ملفت في سورة الشعراء على كل المستويات فضلا عن أن حضورها السابق في المستوى الصوت يتكرر هذا الحضور في المستوى التركيبي، مع الحذف والذكر، والفصل والوصل، والتعريف و التنكير وها هي تبرز ثانية في هذا المستوى مع الجار والمجرور كما في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام (**أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ () وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)** [٤٠]

فالجار والمجرور (من العالمين) يحتمل أن يكون متصلاً ب(الذكران) وعلى هذا يكون المعنى الإنكار والتعجب من كونهم يطؤون ذكران العالمين ويكون المقصود بالعالمين الناس حيث عبَّر بالعام الذي هو (العالمين) وهو يشمل جميع ما يعلمه الله وأراد الخاص الذي

---

[٣٩] سورة الشعراء ،اية :٣٢

[٤٠] سورة الشعراء ،الآية:١٦٥-١٦٦

هو الناس بقرنية (إيقاع الفعل، وجمع الفعل بالواو والنون) الذي يدل على العاقل (وخروج الجن والملائكة فبدلالة القرنية العقلية)[٤١]

ويجوز أن (يكون من العالمين) متعلق ب(تأتون)[٢٤]على هذا يكون المعنى أتأتون من بين من عداكم من العالمين لا يشارككم فيه أحد،وهنا يكون (العالمين) جمع لكل ما يعلم به الله سبحانه وتعالى، والجمع لتغليب العاقل على غير العاقل وخروج الجن والملائكة لما ذكر وفي هذه الحالة يكون التعبير قصرهم على هذه الخصلة الشنعاء دون غيرهم من العالمين،وقد يراد – على هذا التركيب – بالعالمين الناس وفي هذه الحالة يشير التعبير إلى أنهم أوَّل من سن هذه السنة في الناس.

ويقابلنا انفتاح آخر في الدلالة ولكن على المستوى الدلالي لا التركيبي واللفظة التي وقع فيها الانفتاح هي ((مِنْ)) في قوله تعالى (من أزواجكم)[٤٢] فمن هذا التركيب يحتمل أن تكون (بيانية)[٤٣] وعلى هذا يكون الإنكار عليهم كونهم يذرون أزواجهم من النساء ويتجهون إلى ما عداهن من الذكور والنساء غير أزواجهم.

ويحتمل أن تكون ((مِن)) تبعيضية وعلى هذا المعنى يكون الإنكار عليهم كونهم يتركون فروج نساءهم التي خلقها الله لهذا الغرض ويأتوهن في أدبارهن كما يفعلون مع الذكور و(ما) في هذه الآية على هذا تعني العضو أما على الأوَّل فتعني النساء، والذي يؤيد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود (ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم)[٤٤] والغرض البلاغي من هذا الانفتاح على المستوى التركيبي والدلالي هو التكثيف في المعنى من طريقين:

الأولى :- الإشارة إلى أن فعلهم هذا (عظيم) في قبحه لشذوذه فأراد تنفيرهم وغيرهم من هذا الفعل بأن جعلهم وهم يفعلونه مع الذكور من الناس كأنهم يفعلون ذلك مع جميع الذكور التي يعلمها الله جل جلاله

الثانية :- الإشارة إلى أن قوم لوط كانوا يأتون فاحشتين فاحشة اللواط مع الذكور والنساء وفاحشة الزنا إلاَّ أن فاحشة اللواط كانت عادتهم وصفة غالية عليهم والذي يدل على ذلك قول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى (**قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**)[٤٥]هود [٧٩] حيث قال لأنك لا ترى منا مناكحتنا وما هو إلا عرض سايرى، وقيل لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه كان عندهم أنه هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا الذي نحن عليه ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة والغرض نفي الشهوة ((لتعلم ما نريد)) عنوا اتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة [٤٦]

والذي أيد هذا الغرض (تكثيف في الدلالة)النظم الذي جاء في الآية حيث أشار إلى هذا التكثيف من عدة طرق ومنها:

١-مقابلة المعجمية بين ((تأتون الذكور – تذرون أزواجكم)) ولا شك ما لهذه الخاصية من ميزة تكرارية تبرز على المستوى العميق فالمقابلة وإن كانت على المستوى السطحي تشعر بالتنافر ولكنها على المستوى العميق تحقق خاصية التكرار لأن كل نقيض يستدعي نقيضه هذا فضلا عن أنها عملت على تحديد الدلالة والإيفاء بالغرض فلو أنه اكتفى بقوله (أتأتون الذكران من العالمين) لكانت الدلالة ناقصة إذ أن المعنى سيكون منصباً على الإنكار عليهم كونهم يأتون الذكور مع دون الإشارة إلى تركهم لنسائهم أو دون الإشارة إلى أنهم يمارسون مع نسائهم ما يمارسونه مع الذكور أي الإتيان في أدبارهم ولكنه لما أتى بالمقابلة عن طريق العطف بالواو

---

[٤١] روح المعاني، الآلوسي ١٥٥/١٩

[٤٢] سورة الشعراء ،الآية :١٦٦

[٤٣] الكشاف الزمخشري ٣٣٤/٣ ،وينظر: روح المعاني ١٥٥/١٩

[٤٤] الكشاف الزمخشري ٣٣٥/٣

[٤٥] سورة هود : الآية :٧٩

[٤٦] الكشاف الزمخشري ٣٩١/٢

وأشار إلى عدة معان محتملة منها :أنهم يأتون الرجال ويدعون النساء وأنهم يأتون النساء والرجال من موضع واحد وهو الدَّبر وأنهم يأتون جريمة الزنا
٢-خروج الاستفهام ب(الهمزة) عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي هو الإنكار والاستغراب وذلك لما في صيغة الاستفهام من الإثارة و الدهشة ثم الإتيان بعد الهمزة بالفعل (تأتون – تذرون) بصيغة المضارع التي تدل على التجدد والحدوث إشارة إلى تكرارهم لهذا الفعل المنكر، يضاف إلى ذلك تقديم فعل فعلي ((تأتون ، تذرون)) وجعله تالياً للهمزة ليقع النبر عليهما ويكونان هما محل الإنكار والاستغراب وهذا لا يكون لو أنه قدَّم الاسم وجعله تالياً للهمزة فأنت لو قلت (أأنتم تأتون الذكران وتذرون ما خلق لكم) لكان المعنى هو الإنكار عليهم خاصة دون التعرض لمن عداهم بالذكر وهذا غير الغرض ولو قلت(أذكران تأتون) لكان المعنى الإنكار عليهم كونهم يأتون الذكور ويتركون النساء .

الوصل والفصل

كما كان للوصل أثره في تحديد الدلالة وانغلاقها فإن للفصل أثره في انفتاح الدلالة ومن ذلك قوله تعالى:(**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ () تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ () يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**)[47]

فجملة (يلقون السمع) تحتمل ألا يكون لها محل من الإعراب ويكون الفصل بينها وبين الجملة السابقة لها لشبه كمال الاتصال لأنها بمثابة الجواب عن سؤال مقدر نشأ من الأولى كأن قائلاً قال: لمَ تنزل على الشياطين؟ فقيل السمع، وأكثرهم كاذبون،ويحتمل أن يكون لها محل من الإعراب و في هذه الحال تحتمل اعرابين النصب على الحالية من ضمير الشياطين والمعنى: تنزل ملقين السمع كما تحتمل الجرَّ على أنها صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع[48]

ومما يتصل بهذا المبحث الدقة التامة في استعمال القرآن الكريم لأحرف العطف كما هو واضح في التعبير القرآني بشكل عام وفي سورة الشعراء بشكل خاص، ومن ذلك قوله تعالى:(**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ () وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ () وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ () وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ () وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ () رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**)[49]

فتأمل الدقة التامة في استعمال حروف العطف من خلال هذه الآية فإنه لما أراد أن يعطف الهداية على الخلق عطفها بالفاء – الدالة على الترتيب والتعقيب – لأن الهداية تأتي بعد الخلق وعقبه مباشرة دون مهلة، ولما أراد عطف السقي على الإطعام والإنسان قد يشرب أثناء الأكل، أو قبله أو بعده بفترة طويلة أو قصيرة استعمل الواو في العطف، لأن الواو تدل على مطلق الجمع دون مراعاة للترتيب أو التعقيب، ولما كان الأمر يحتاج إلى ترتيب وفترة زمنية أطول استخدم – ثم – في العطف حين عطف الإحياء على الإماتة، فبعث الله عقب الموت مباشرة حتى ولو كان المقصود بالموت الرقاد، ولما كان ذلك كذلك ناسب المعنى ثم لأنها تدل على الترتيب والتراخي.

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل تتجلى مظاهر الدقة في النظم أيضاً من هذا الترتيب العجيب للصفات المذكورة في خطاب إبراهيم عليه السلام للقوم تفصيلاً لصفاته جلَّ وعلا التي لأجلها كان معبوداً فقد بدأ الخلق الذي هو الإيجاد من العدم ، وعبَّر عنه بالفعل الماضي كنايةعن حصوله وحدوثه، ثم ذكر بعد ذلك الهداية لأنها من مستلزمات الخلق ، وعبَّر عنها بالفعل المضارع لأنها تحتاج إلى تعهد مرة بعد أخرى ، فكان استخدام الفعل المضارع أدق لأنه يدل على الاستمرار والتجدد ثم تلت بذكر الطعام والشراب، وهكذا كان الترتيب والدقة في التعبير فيما بقي من الصفات كما أن هناك أمرا آخر يشير إلى دقة و القرآناعجازه في التعبير، وهو

---

[47] سورة الشعراء ،الآية:٢٢١-٢٢٣
[48] الكشاف الزمخشري ٣٤٧/٣
[49] سورة الشعراء ،الآية :٧٨-٨٣

الإتيان بضمير الفصل (هو) في بعض المواضع ، وتركه في مواضع أخرى فقد أتى به مع الهداية والإطعام والتعب، والشقاء فقال هو يهدين، هو يطعمني ويسقيني وهو يشفيني لأن هذه الصفات قد يظن حصولها من المخلوق فأرد دحظ هذا الظن علن طريق الإتيان بهذا الضمير هو لا غيره، ويدلك على ذلك أنه لما عبَّر عن الموت والحياة لم يأت بهذا الضمير قبلهما لأنها لا يمكن أن يكونا من المخلوق

الانفتاح الدلالي في المستوى الدلالي

معجم الألفاظ

تكمن أهمية اللفظة من كونها اللبنة الأساسية في التعبير وقد تتحد الألفاظ في التعبير عن المعنى الواحد إلا أن هذه الألفاظ ليست واحدة في نقل هذا المعنى كاملاً وإنما تتفاوت وتتغاير بما تحمله من صفات صوتية ناتجة من طبيعة تركيبها الصوتي، وهامشية ناتجة من تجارب الفرد مع هذه اللفظة، ومن هنا (تختلف دلالة اللفظة الشعورية من فرد إلى فرد كما تختلف من جيل إلى جيل)[٥٠] ومهمة الأديب تكمن في اختياره من تلك الألفاظ ما يتناسب مع الجوَّ الشعوري والمعنى المراد توصيله للمتلقي أولاً، وما يتناسب مع الألفاظ الأخرى في العبارة ثانياً وهو ما عرف عند الجرجاني بالنظم[٥١] وتتفاوت القدرات في هذا الاختيار والمطابقة بين نص وأخر فهناك من النصوص ما بلغت حدَّ الإعجاز في اختيارها، ومنها ما بلغت الذروة إلاَّ أنها لم تبلغ حدَّ الإعجاز وهناك النصوص الممتازة والجيدة كما قال سيد قطب[٥٢] والنصوص القرآنية هي وحدها التي بلغت حدَّ الإعجاز في اختيار الألفاظ بحيث كانت ملائمة لمعانيها ومكانها في التركيب،إذ " أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة، قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الأخر، ولا بد من استحضار معاني الجمل أو استحضار جميع ما يلائمه من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى، فلذلك كانا القرآن أحسن الحديث وأفصحه "[٥٣] ولما كان الأمر كذلك فإن دراسة معجم سورة الشعراء تهدف إلى التمثيل والتدليل لدلالة الألفاظ في السورة دون الحصر والتقسيم لذا فان اختيار بعض الألفاظ بعينها لا يعني افتقار بقية الألفاظ لهذه الخاصية بل على العكس من ذلك فإن كل لفظة وضعت في القرآن بأكمله وليس في سورة الشعراء فحسب تتسم بأعلى درجات الحسن بحيث لو نزعتها من مكانها واستبدلت بها لفظ آخر لاختلَّ المعنى وذهب جمال التعبير كما سنبين ذلك من خلال تحليلنا لبعض الألفاظ في هذه السورة، ومما دفعتنا للوقوف عند هذه الألفاظ وجعلها مما يشكل المعجم اللغوي ارتباطها الوثيق بالفكرة العامة التي عالجتها.

لم يقتصر انفتاح الدلالة في سورة الشعراء على المستوى الصوتي والتركيبي، بل تعدى ذلك إلى المستوى الدلالي من خلال معجم ألفاظ السورة ، إذ تتسع دلالة اللفظة كأن يقع تحت اللفظة معنيان أو أكثر،أو خروجها لمعنى مجازي وهذه سمة غالبة في القرآن .

فعلى مستوى معجم ألفاظ سورة الشعراء هناك عدد غير قليل من الألفاظ التي تتنوع بتنوع السياق لتكون عاملاً من عوامل تأكيد المعنى كما في قوله تعالى **(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ)**[٥٤]

فلفظة (قالين) هنا قد تكون مشتقة من القلو أي الرمي من قولهم قلت الناقة بركبها فكان المقلو يقذفه القلب من بغضه، وتحتمل أن تكون من قليت السويق على القلى فكأنما شدة البغض تشوي الفؤاد وتقليه[٥٥] ومن هنا كان اختيار هذه اللفظة دون غيرها لما فيها من مبالغة في ترك

---

[٥٠] النقد الأدبي سيد قطب ،دار الشروق ،ط٥، ١٩٨٣، ص ٣٧ وينظر: دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ص١٠٧ ،

[٥١] ينظر دلائل الإعجاز الجرجاني ص٦

[٥٢] ينظر النقد الأدبي ، سيد قطب ص ٥٦

[٥٣] الإتقان جلال الدين السيوطي تح، محمد أبو الفضل إبراهيم ٢٢/٤

[٥٤] سورة الشعراء الآية١٦٨

[٥٥] ينظر روح المعاني الألوسي ١٥٦/١٩

الفعل وتأكيده عن طريق الانفتاح الحاصل من الاشتراك اللفظي ومن التصوير التجسيدي للعمل إذ أنه صور عملهم بشيء مادي محسوس يرمي بجامع البغض والاحتقار ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية. كما أنه صّور بغضه لعملهم بالنار بجامع الإزالة في كلٍ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قالين، والتعبير بذلك كناية عن شدة الهجر، وشدة البغض. بدليل أنه قال: من القالين ولم يقل قاليا إذ أن التعبير الذي جاءت عليه الآية يفيد أنه عليه السلام من قوم اشتهروا بهذا القلى ويتكرر هذا الانفتاح في المستوى المعجمي مع لفظة (مبين) في مواضع عدة من السورة وغرضه البلاغي الإحاطة بالمعنى من جميع جوانبه كما في قوله تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين)

فلفظة (مبين) التي وصف بها الثعبان يمكن أن تكون مشتقة من الفعل المتعدي – أبان – وعلى هذا يكون المعنى أن الثعبان المنقلب عن العصا مبين لرسالته عليه السلام – عن طريق هذا التحول السريع من عصا إلى ثعبان ثم عن طريق ضخامته الفائقة وسرعته المتناهية، ويدلك على ذلك وصف اهتزازه في أية أخرى[٥٦] بأنها كالجان قال تعالى(فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً) كما تحتمل أن تكون لفظة (مبين) مأخوذة من الفعل المتعدي (بان)، وعلى ذلك يكون المعنى أن هذا الثعبان حقيقي وليس من نسيج الخيال كما هو الحال عند السحرة في زمن فرعون، وهنا يكمن الإعجاز في استخدام اللفظ.

كما أن لهذا الاستخدام دلالة أخرى هي الإشارة إلى الاستمرار والدوام إذ أن اشتقاقها من الفعل اللازم يجعلها صفة مشبهة أما اشتقاقها من الفعل المتعدي فيجعلها اسم فاعل فيكون المعنى دال على تجدد هذا الصفة وحدوثها كلما ألقى موسى العصا.

ومثل هذا الاختيار الذي يؤكد إعجاز القرآن الكريم والذي يتضمن الانفتاح الدلالي اختيار (ضالين) في قوله تعالى (**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**)[٥٧] التي تحتمل معاني عديدة فقد تكون بمعنى – الجهل – ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس وابن مسعود[٥٨](ويكون المعنى أن موسى عليه السلام فعل ذلك غير متعمد القتل وإنما الغرض التأديب، وقد تكون بمعنى الطيش الذي هو ضد الحلم أي فعلتها غير مبال بالعواقب، وقد تكون بمعنى المحبة كما في قوله تعالى (**قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**)[٥٩] يوسف[٩٥]، وقصد بذلك أنه فعل ذلك محبة منه لله تعالى وغيرة له كما تحتمل معنى النسيان كما في قوله تعالى (**أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**)[٦٠] ويبدو أن القرآن أراد هذه المعاني مجتمعة مشاكلة لسؤال فرعون السابق في الانفتاح إذ أن لفظة – الكافرين – في قوله تعالى إخبارا عن فرعون (وأنت من الكافرين)[٦١]تحتمل معاني عديدة منها الكافرين بنعمتي أو بمعنى من جملة القوم الذين تدعي كفرهم، أو ممن يكفرون في دينهم أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها هذا بالإضافة إلى ما في هذا الانفتاح من الإشارة – من قبل موسى – إلى ما هم عليه من المعتقدات الفاسدة التي هي أشبه بالصحراء فهم تائهون ضائعون فيها لا يهتدون إلى طريق، وذلك إذ فسَّر – ضالين – بمعنى التيه والتخبط، وقال له ذلك مع أن الأنبياء معصومون استدراجاً له.

المجاز

يتنوع الغرض من استعمال المجاز في النص القرآني فضلا عّما يبعثه من أثر جمالي ومعنوي فقد يشكل انفتاحاً في الدلالة، ونجد هذا كثيراً في القرآن بشكل عام وفي سورة الشعراء

---

[٥٦] ينظر تفسير البحر أبو حيان الأندلسي دار الفكر للطباعة والنشر ،١٩٩٢م ،١٣١/٥

[٥٧] سورة الشعراء الآية٢٠

[٥٨] ينظر: البحر المحيط ،ابو حيان الأندلسي،ج٨/ص١٤٧

[٥٩] سورة يوسف الآية٩٥

[٦٠] سورة البقرة:٢٨٢ ، و ينظر تفسير غريب القرآن أبن قتيبة شرح إبراهيم رمضان ، دار مكتبة الهلال ،بيروت ، ١٩٩١، ص ٢٧١ ، وينظر روح المعاني الآلوسي ٩٢/١٩ ، ٩٣

[٦١] سورة الشعراء الآية١٩

على وجه الخصوص، ومن ذلك قوله تعالى (**رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ () وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**)[٦٢]

فالمجاز وقع في لفظة – لسان – إذ استعيرت للتعبير عن الذكر مجازاً لعلاقةٍ بينهما هي الآلية، والقرينة المانعة من إيراد المعنى الأصلي لفظية هي وصف اللسان بالصدق، ولكنه في الواقع لا يوصف بالصدق أو بالكذب إنما يوصف بذلك الذكر، والسبب في العدول عن الحقيقة إلى المجاز المبالغة في طلب الذكر الصادق عن طريق وصف آلته بالصدق ، والتعبير في الآية كناية عن طلب التوفيق بالأعمال الحسنة المرضية لله تعالى حتى تكون قدوة لغيره فيذكرونه بسببها بالخبر. وهذا تعبير ذو معنى مزدوج أو متعدد يستدي التأويل ليوضَّح المعنى الثاني أو المعاني المتعددة.

ومثل المجاز الأساليب الانشائية الطلبية مثل الاستفهام والأمر والنهي والنداء التي تضمنتها سورة الشعراء بشكل واسع، والتي تتسع فيها الدلالة مما يحقق انفتاحا دلاليا من شأنه أن يسهم في رسم جماليات التعبيرالقرآني ، من خلال المعاني المجازية التي تخرج اليها هذه الأساليب، مثل قوله تعالى (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)[٦٣] فابراهيم لا يجهل عبادة قومه ، فهو يقصد من سؤاله انكار وتحقير عبادتهم ، فجاء بالاستفهام ليكون التأثير أقوى، وان كان المعنى الحقيقي لايتقاطع مع المعنى المجازي فهو أي المعنى الحقيقي الجسر الذي يوصل المتلقي للمعنى المجازي المقصود ، ويتكرر مثل هذا التوظيف في قوله تعالى (**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ**)[٦٤]وهذا الاستفهام الذي يقوم على العرض من خلال الاداة (الا) يتكرر خمس مرات في سورة الشعراء التي تضمنت ذكر سبعة أنبياء وهم : موسى ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ومحمد(عليهم السلام) ، ويتضمن التمني بتقوى الله عز وجل لكن المعنى المقصود منه هو الأمر بتقوى الله ، وبذلك تتسع الدلالة في مثل هذه الأساليب الانشائية .

في الأخي لابد من الأشارة الى أن ماتناولناه في هذا البحث هو جزء من موضوع كبير ويحتاج جهد أكبر ومساحة أوسع ليكون كتابا شاملا نقف فيه عند اشكال الانفتاح الدلالي المتعددة ، وتحليلها و الوصول الى وظائفها .

---

[٦٢] سورة الشعراء الآية٨٣-٨٤

[٦٣] سورة الشعراء الآية٧٠

[٦٤] سورة الشعراء الآية١٠٦

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم
-الإتقان جلال الدين السيوطي تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث ، القاهرة ، ١٩٦٧.
-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان.
-: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦١.
- البيان في روائع القرآن، تمام حسان، القاهرة، عالم الكتب ١٩٩٣ م.
-تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي دار الكتاب العربي ، بيروت، ط٢ ١٩٧٤.
- التطور النحوي ، براجشتراسر ، مطبعة السماح ،القاهرة، ١٩٢٩.
-تفسير البحر أبو حيان الأندلسي دار الفكر للطباعة والنشر ،١٩٩٢م.
-تفسير غريب القرآن أبن قتيبة شرح إبراهيم رمضان ، دار مكتبة الهلال ،بيروت ، ١٩٩١.
- التفسير الكبير الفخر الرازي ، قدَّم له ، هاني الحاج ، تح ،عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ،القاهرة.
-التنوعات اللغوية د- عبد الخالق عبد الجليل / مط دار صنعاء ط١ / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- الخصائص،أبوالفتح عثمان بن جني، حققه محمد علي النجار، دار الكتب المصرية١٩٥٦
-دلائل الإعجاز الجرجاني، تح ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ،١٩٨٢
- دلالة الألفاظ د- إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٨٠م.
-روح المعاني ، أبو الفضل الآلوسي، تح محمد أحمد ومحمد عبد السلام، دار احياء التراث ،ط١ ١٩٩٢.
-الصورة الفنية في المثل القرآني د. محمد حسن علي الصغير، دار الرشيد ، بغداد، ١٩٨١
-صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم بيروت ط١، ١٩٨١م.
-علم الأصوات د- كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر ،القاهرة ٢٠٠٠.
-فيض الرحيم في قراءات القرآن الكريم، القراءات السبع ، بروايات عدة ، إعداد سعيد اللحام ، عالم الكتب ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
-القاموس المحيط ، الفيروز ابادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان.
-كتاب السبعة لابن مجاهد تح شوقي ضيف دار المعارف، القاهرة، ط ٢.
- الكشاف،الزمخشري ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢ ٢٠٠١ .
-معاني القرآن للأخفش الأوسط تح فائز فارس مط الصفاة الكويت ط ٢

-معاني القرآن ، الفراء ، تح محمد علي النجار ط ٣ / ٢٠٠٢م.
- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، الدار البيضاء، دار الثقافة ١٩٧٤.
-النقد الأدبي سيد قطب ،دار الشروق ،ط٥ ،١٩٨٣.

البحوث والمجلات

انفتاح الدلالة في النص القرآني د. مهدي عرار ،مجلة إسلامية المعرفة إصدار المعهد العالي للفكر الإسلامي العدد (٢٧) شتاء ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.